التأثير السياسي والإداري للمهاجرين الأندلسيين في تلمسان خلال القرنيين السابع والثامن الهجريين/13-14 م :

د/ علي أحمد علي كرير*

بدأ تيار الهجرة الأندلسية الجماعية إلى بلدان المغرب الإسلامي عندما داهم النصارى الأسبان مدن الأندلس مهدداً وجود العرب المسلمين فيها، محتلاً مقاطعاتهم الواحدة تلو الأخرى خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي وبخاصة بعد هزيمتهم في موقعة العقاب الشهيرة 609 هـ/1212م.

ولما اختلت أوضاع المسلمين في معظم بلاد الأندلس ولم يكن أمامهم سوى المفاضلة بين ثلاث خيارات: إما أن يلبثوا في ديارهم خاضعين لسلطان النصارى على شروط أقرت عليهم منذ البداية، وإما أن يهاجروا إلى بر العدوة المغربية فينزلوا فاس أو وهران أو تلمسان أو بجاية أو تونس.. الخ حيث شاءوا، أما الخيار الثالث فكان التوجه إلى غرناطة حيث أصبحت المملكة الوحيدة تحت حكم المسلمين في الأندلس، يقول مخلوف "وصارت بعد هذه الهزائم والنوائب إلى الانقسام والتنافس مع كثرة الفتن والاضطراب وانحاز المسلمون لغرناطة وجنوب الجزيرة وهاجر الكثير من الفضلاء والعلماء إلى فاس ومراكش وتونس وتلمسان (مخلوف، د.ت، 140).

وقد حث كثير من الفقهاء والعلماء المسلمين على الهجرة من البلاد التي استولى النصارى على أغلب مناطقها، حيث يذكر الونشريسي في نازلة أن المهاجرين من الأندلس على بلاد المغرب الإسلامي قد قدموا على مفارقة بلادهم، فجاء جوابه على النحو التالي "أن الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة، كذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل" (الونشريسى، 1981، 121)، ويقصد هنا بأرض الحرام والباطل بلاد الأندلسيين حيث أنها مازالت بها مناطق إسلامية لكنها أرض ظلم وفتنة، والنصارى يتربصون بها للقضاء على الدين الإسلامي في كامل ربوع الجزيرة الأيبيرية وطرد هؤلاء المسلمين منها.

وما كان منتصف القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي حتى حلت الكوارث الكبرى بمدن الأندلس، وبدأ سيل المهاجرين يتدفق وأخذوا يركبون البحر في أفواج مهاجرة وحركة دامت أياماً وشهوراً وسنيناً ونزلت بمدن المغرب الإسلامي كافة، حيث لم يقتصر استقرارهم في إقليم معين بل انتشروا بكامل أقاليمه من مراكش غرباً إلى طرابلس شرقاً.

* أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب صبراتة.

ونالت بلاد المغرب الأوسط وبخاصة عاصمتها تلمسان نصيباً من هؤلاء المهاجرين فاستقروا في أرباضها وضواحيها واستقر الجزء الباقي في وهران وقسطنطينه وغيرها من مدنه وازدادت أعدادهم أواخر القرن الثامن وبداية القرن التاسع الهجريين، الخامس عشر الميلادي عندما اشتدت وطأة النصارى الأسبان على بقايا المسلمين في مملكة غرناطة إذ سقطت سنة 897هـ/1492م فخرجت أعداد كبيرة صوب بلاد المغرب الإسلامي واستقرت في حواضره.

لقد شجعت الصلات القديمة بين الأندلس والمغرب الأوسط المتمثلة في انتقال الطلبة والعلماء والتجار بين العدوتين لطلب العلم والتدريس وممارسة التجارة والصيد على السواحل المغاربية والأندلسية، حيث كانت مدن المنطقتين تقابل بعضها البعض فمدينة هنين شمال غرب تلمسان تقابل المرية (ALMERIA) في شرق الأندلس، ومستغانم تقابل دانية (DANIA) أما مدينة وهران فبناها الأندلسيون (القلقشندي، 150)، كذلك وجود قبائل وعشائر عربية وبربرية ذات أصل مشترك استقرت بالبلدين، أمثال أل زيري منهم زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي كان قدومه للأندلس بعد صراع بين أبيه وبني قرابته من ملوك إفريقية باديس بن منصور فأوجبت مخاطبة المظفر بن أبي عامر في اللحاق بالأندلس فدخلها على عهده جماعة وأفراد (ابن الخطيب، 2001، 313).

إضافة إلى صلات المصاهرة التي كانت بين البلدين فيذكر ابن سعيد أنه "كما يتجهز الفارس من تلمسان، كذلك تتجهز العروس من مرسية" (ابن سعيد، 1980، 246)، كل هذه العوامل سهلت انتقال هؤلاء الأندلسيين إلى مدن المغرب الأوسط للاستقرار فيه وبخاصة تلمسان، حيث أضحت المقصد الرئيسي للمهاجرين خلال القرن السابع والثامن الهجريين وإن كانت أعدادهم أقل ممن هاجروا صوب حواضر الأقصى مراكش، فاس أو مدن المغرب الأدنى "إفريقية" بجاية، وتونس وهذا يدفعنا لمعرفة أسباب هذا النفور؟

ويبدو أن السبب الرئيسي يرجع إلى حياة الزيانيين في تلمسان التي لم تكن مستقرة خلال هذه الحقبة وحتى قبيل حصارها واحتلالها من قبل أبناء عمومتهم بني مرين فيذكر جورج مارسيه أن بلاد إفريقية "المغرب الأدنى" كانت أكثر استعداداً في هذا المجال من المغربيين، والمغرب الأقصى كان أكثر استقبالاً لخبراتهم من المغرب الأوسط، ويعلل ذلك أن المغرب الأوسط لا يزال بلداً ريفياً كبيراً والمدن فيه نادرة ولا تجد الحضارة أرضاً خصبة لنموها ومنطقة وهران التي قام فيها بنو عبد الواد عاصمتهم كانت منطقة نفوذ صحراوية مرتفعة، ينتشر الرعاة البدو فيها ويعيشون حياتهم البدوية قرب الساحل (مارسيه، 1991، 326)، وأراد مارسيه إعطاءنا سبباً مقنعاً لهذا

النفور إلا أنه غالى كثيراً حيث وصف أرض المغرب الأوسط بأنها "لا تجد الحضارة أرضاً خصبة لنموها" ويبدو أن السبب الرئيسي لهذا النفور عدم الاستقرار السياسي للبلاد وبخاصة أنها كانت مهددة على الدوام سواء من الحفصيين أم من المرينيين، إضافة لكون أهل الأندلس اعتادوا حياة رغد ونعيم في مدن ساحلية شبيهة إلى حد كبير بمدن مراكش وفاس والرباط وسلا وتونس وبجاية وغيرها.

ورغم قلة الأعداد التي توافدت على تلمسان مقارنة بإفريقية والمغرب الأقصى، إلا أنها لم تكن ضئيلة؛ فقد شجع ملوك بني زيان على الهجرة الأندلسية حيث حرصوا على إيجاد الإطارات العليا النافعة، وتوفير العناصر التي يحتاجونها ويتفاخرون بها، وبالتالي توافد على مركز الدولة "تلمسان" العلماء والقضاة والفقهاء والأدباء ووجدوا ترحيباً كبيراً من ملوكها الذين جعلوا لهم مكانة مرموقة في قصورهم ومنحوا لهم المناصب والرتب العليا في الدولة وشهدت عاصمتهم حينها توسعاً عمرانياً نتيجة لتزايد أعدادهم ونزوحهم من أمصارهم بعد سقوط أشهر مدنهم إشبيلية، قرطبة، مرسية، جيان.. الخ.

فقد أولى يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة عناية فائقة بهم وشجع رجال العلم وحرص على استقدام مشاهير العلماء (حاجيات، 1993، 39)، ويذكر ابن خلدون مؤسس دولة بني زيان يغمراسن "وفد عليه لأول دولته ابن وضاح إثر دولة الموحدين، أجاز البحر مع جالية المسلمين من شرق الأندلس فآثره وقرب مجلسه وأكرم نزله، .. ووفد في جملته أبو بكر بني خطاب المبايع لأخيه بمرسية، .. فاستكتبه وصدر عنه من الرسائل في خطاب خلفاء الموحدين بمراكش وتونس" (ابن خلدون، 1968، 163).

واهتم أمراء بني زيان من بعده بالمهاجرين الأندلسيين وقربوهم وجعلوا لهم مكانة مرموقة في قصورهم، وبخاصة أن بعضهم قد سكن الأندلس في فترات سابقة وأوكل هؤلاء الأمراء للعلماء والفقهاء منهم مناصب كبيرة ومكانة عالية أمثال السلطان عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن الذي بوُيع في تلمسان جمادي الأخرى سنة 749هـ/1350م الذي سكن الأندلس بغرناطة تحت إيالة أسلافنا الملوك من بني الأحمر إضافة إلى أبيه عبد الرحمن وأخيه أبي ثابت الزعيم وأخيه يوسف أبو حمو وأخيه إبراهيم (ابن الأحمر، 2000، 83).

لقد شملت الهجرات الأندلسية خلال القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي أصنافاً مختلفة من طبقات المجتمع وإن غلب عليها أصحاب المراتب العليا والعلماء والمثقفين والأدباء،

ولما استقر بهم المقام ببلدان المغرب الإسلامي كان لهم نصيب كبير من الوظائف السياسية والإدارية إذ سبق لأغلبهم توليها عندما كانوا ببلادهم وأسهموا بشكل كبير في تطوير النظم الإدارية والسياسية في البلدان التي حلوا بها. حيث يذكر الشيخ ابن عاشور أنه "كان علماء الأندلس لشعورهم بسوء العاقبة يعملون في الهجرة على ما جاورهم من البلدان، وكان مقصدهم تلمسان والمغرب الأقصى ثم إلى تونس وبدخول رجلات الأندلس أصبحت هذه الأقاليم وارثة العلوم الأندلسية".(القلصادي، د.ت، 79–80).

وشهد الجهاز الإداري تطوراً كبيراً خلال العهدين الحفصي والزياني حيث يذكر ليون الأفريقي ترتيب كبار الدولة العشرة التابعين لبلاط ملك تونس وهم المنفذ وهو شبه نائب الملك، المزوار وهو الذي يساعد المنفذ، وقهرمان القصر وهو الذي يتولى شؤون القصور الملكية، وحاكم المدينة، والكاتب، وصاحب التشريعات، وأمين الجزية، والمكاس، وجابى رسوم المرور، ووكيل الخراج والانفاق أو رئيس بيت المال(الوزان الحسن، 1983، 78–79).

وسار بنو زيان على تقسيم الحفصيين نفسه فقسموا السلطة على ثلاث هي: السلطة العسكرية ويتولاها صاحب السيف، والسلطة الإدارية ويتولاها صاحب القلم، والسلطة القضائية ويتولاها قاضى الجماعة وتعير كل من هؤلاء رتبة وزير وكان رئيس الوزراء يلقب بالمزوار وله حق الإشراف على كل هؤلاء (شلبي أحمد، 1979، 211–212؛ الصلابى، 2003، 260)، ورغم اختلاف التسميات في الوظائف الإدارية والسياسية إلا أن التقسيم هو نفسه سواء كان في دولة بني حفص أم في دولة بني زيان، ويظهر بوضوح أن أساس هذه التسميات مقتبس أصلاً من التنظيم الموحدي أساساً مع حدوث بعض التغيرات والإضافات التي جلبها الأندلسيون بعد قدومهم إلى بلدان المغرب الإسلامي فالحجابة وظيفة أندلسية انتقلت إلى بلاد المغرب الإسلامي، وتعد مهمة الواسطة بين الملك والرعية.

ولم تكن هذه الخطة بالمفهوم الأندلسي موجودة بإفريقية وتلمسان أيام الموحدين وأول عهد الحفصيين إلا إنها لم تظهر بالشكل الأندلسي إلا مع بداية عهد السلطان أبي إسحاق الأول الحفصي 678–681هـ/1279–1283م الذي عاش أغلب فترات حياته بالأندلس قبل العودة إلى إفريقية (الزركشى، 1998، 90؛ ابن الشماع، 1984، 76)، فانتشرت هذه الخطة في نطاق واسع، وبالتالي فلا غرو أن تكون من ضمن التأثيرات الأندلسية لبلاد المغرب الإسلامي قاطبة، وأصبحت من الوظائف المنوطة بالوزراء والشخص القائم بها يقوم بدور الواسطة بين السلطان وأهل الرتب كلهم. (برنشفيك، 1985، 22).

لقد أصبح تولي الحجابة والكتابة وإسناد التوظيف الإداري والقيام بالأعمال التعليمية والدينية في غالب الأحيان من نصيب الأندلسيين، ولم يكن وصولهم لهذه المناصب وليد الصدفة وإنما للحاجة الماسة والشديدة لحكام الممالك الإسلامية لتطوير إدارتهم والاستفادة من أصحاب الكفاءات العالية والخبرات وذوي الاختصاص في مختلف جوانب الحياة بخاصة في ظل التقدم الكبير للتنظيمات الإدارية والسياسية لبلاد الأندلس خلال العهود الإسلامية، مقابل حياة البداوة والتأخر النسبي وحالة الصراع الدائم على الحكم وعدم الاستقرار التي يعيشها بلدان المغرب الإسلامي آنذاك.

لقد أسهم هؤلاء المهاجرون في النشاط الإداري والسياسي للدولة الزيانية بتلمسان وأخذوا على عاتقهم تولي المناصب السياسية الكبرى بفضل تشجيع أمرائها ورغبتهم في تطوير النظم الإدارية، فاشتهرت عائلات أندلسية وأسهمت في تطوير هذه النظم أمثال أسرة ابن خلدون التي لاقت شهرة كبيرة في بلاد المغرب الإسلامي بكافة أقطاره وبلاد الأندلس، كذلك أسرة ألعقباني وغيرها.

ولم يظهر تأثيرهم القوي منذ تأسيس الدولة، حيث لم تستقبل في بداية تكوينها العديد منهم إذ كان وجودهم قليلاً في عاصمة الزيانيين فلم يعتمد أمراؤها الأوائل إلا على عدد وجيز من خبراتهم بسبب انتشار أغلبهم في المراكز المجاورة مثل تونس العاصمة، وبجاية، ومراكش، وطنجة، وسلا وغيرها، وكان مؤسس الدولة يغمراسن بن زيان قد اختار الوزراء والحجاب والمعاونين من أفراد عائلته المقربين واعتمد السلاطين من بعده على عرب بني هلال وبعض العلوج إضافة إلى عناصر أندلسية تولوا مناصب كبرى في البلاط الزياني وكان لهم دور مهم في تطوير النظم الإدارية والسياسية للدولة.

وبتولى عثمان بن يغمراسن الولاية سنة 673هـ/1275م بدأ يتخلص من البداوة ويعمل على تنظيم الجهاز الإدارى لدولته وأخذ السلطان أبو حمو الأول بعده زمام الأمر وأكمل ما بدأه حيث يذكر ابن خلدون أنه "وهو أول ملوك زناته رتب مراسم الملك، وهذب قواعده" (ابن خلدون، 1996، 204، 354) وأنظر كذلك: (Arie, 1990, 458).

ويرجع هذا التطور إلى تأثير المهاجرين الأندلسيين المحيطين به حيث أصبح ملوك بني زيان يعتمدون عليهم في تسيير أمور الدولة وتنظيمها ومنحهم المناصب العليا ويكفى أن عدداً كبيراً من حجاب الدولة ووزرائها كانوا من الأندلسيين، ففي عهد أبي حمو الأول 707-717هـ/1307-1318م تولى الحجابة أربعة وزراء على التوالي من عائلة أندلسية واحدة وهم

محمد بن ميمون بن الملاح وولده من بعده محمد الأشقر، فإبراهيم ثم عمهما على بن عبد الله وكان بنو الملاح من مشاهير رجال المال وهم أسرة قرطبية الأصل اشتهرت بالعدل والصدق وقد انقرض أمر هذه الأسرة يوم اغتيال أبى حمو الأول 718هـ/1317م إذ قتلوا معه وانتهبت أموالهم (بن خلدون يحي، 1980، 4 ؛ ابن خلدون عبد الرحمن، 217؛ رزوق، 1986، 168).

وفي عهد ولده أبي تاشفين عبد الرحمن الأول 717-738هـ/1318-1338م تولى الوزارة مملوك من أهل قطلان اسمه هلال ولد في غرناطة وخدم في بلاط بني الأحمر ثم أهداه إلى السلطان أبو حمو الأول في تلمسان (التنسي، 1985، 25-26).

أما عهد أبي حمو الثاني فيعد من أرقى عهود بني زيان فقد كان ذا ثقافة أندلسية بحكم عيشه هناك، حيث كان يختار له مساعديه الرئيسين من بين أفراد الجالية الأندلسية ومنهم أسرة بني خلدون متمثلة في الأخوين يحيى وعبد الرحمن. ولما اعتذر عبدا لرحمن عن تلبية رغبة الأمير الزياني أناب أخاه أبى زكريا بن خلدون فاستعملها مدة طويلة، وكان له مراسلات سلطانية مع ملك غرناطة محمد الخامس الغني بالله ووزيره لسان الدين بن الخطيب (ابن الأحمر، 76؛ القلقشندى، 145؛ ابن خلدون، 2003، 102-103)، جورج مارسيه، 338).

هكذا لقد كان لهذه الجالية دور كبير في احتكار خطة الحجابة في كامل بلاد المغربين الأدنى والأوسط إضافة إلى بعض الخطط السلطانية الأخرى أهمها الكتابة (كاتب الإنشاء) التي تعتبر من الوظائف البارزة وكان صاحبها يمثل المرتبة الثانية في بلدان المغرب الإسلامي وبخاصة دولة بني زيان، حيث اتخذت الخطة أكثر من تسمية فأطلق على صاحبها عدة تسميات منها: صاحب القلم الأعلى، والفقيه الكاتب، وشيخ الكتاب، ورئيس الكتاب، أو كاتب السر والإنشاء (ابن خلدون، 1997، 241)، وكان أمراء بني زيان يختارون لهذا المنصب أرفع طبقات المجتمع بحيث يشترط فيه أن يكون فصيح اللسان بليغ البيان، عارفاً بأسلوب الكتابة، بارع الخط عالماً بالحل والربط كاتماً للأسرار (عيذاب، 1986، 136).

ولمّا كان ضمن الهجرة الأندلسية عديد العلماء والفقهاء والكتاب ذوى الخبرة الواسعة واشتغال أغلبهم بهذه الخطة في بلادهم الأصل، فمنحوا هذه الخطة في بلدانهم الجديدة لإجادتهم فن الكتابة فأصبح هؤلاء الكتاب الأندلسيون يمثلون جماعة متخصصة ينتقلون من خدمة أمير إلى آخر حسب الظروف ويحتلون الوظائف في دواوين الإنشاء وفى إدارة الأشغال (محمد المطوي، 215).

ولعل أشهر من خدم في خطة الإنشاء والكتابة من الأندلسيين في دولة بني زيان وأولهم الكاتب الأديب الكبير الشهير أبو بكر محمد بن داود بن خطاب المرسى، وفد على يغمراسن من شرق الأندلس فجعله صاحب القلم الأعلى، بخاصة في ظل البداوة الموغلة التي كانت عليها الدولة آنذاك (بن خلدون يحي، 60؛ التنسي،265؛ ابن مريم، 1908، 227).

وقد أكد ابن الأحمر ذلك عند حديثه عن الأمير يغمراسن بقوله "لم يزل يغمراسن مع ملوك الموحدين في ذل وهول ينادونه بالشيخ ويناديهم بمولانا، رأيت ذلك في كتبه لهم، وهى من إنشاء الكاتب أبى بكر بن خطاب المرسى الأندلسي" (ابن الأحمر، 64)، كذلك الفقيه الكاتب صاحب القلم الأعلى وكاتب الأشغال السلطانية على بن محمد بن أحمد بن مسعود الخزاعي من أهل الأندلس وأصل سلفه منه يرجع إلى بني مسعود القادمين على تلمسان، فاستكتب لملوكها بحضرتهم وقلد وزارة السلطان أبي زكريا محمد عثمان بن يغمراسن بن زيان ثم تولى كتابة الأشغال السلطانية" (الأحمر، 1997، 249).

ويظل أشهر من تولى خطة الكتابة للزيانيين والحفصيين على السواء، بل في كامل بلاد المغرب الإسلامي من الأندلسيين الكاتب الشهير الأديب المؤرخ الفقيه أبوزيد عبد الرحمن بن خلدون ويذكر بنفسه كيفية وصوله إلى اعتلاء هذه الخطة بقوله" واستدعاني أبو محمد بن تافراكين المستبد على الدولة يومئذ بتونس إلى كتابة العلامة على سلطانه أبي إسحاق، وقد نهض إليهم من قسطنطينة صاحبها الأمير أبو زيد، حاصر السلطان أبي يحي في عساكره، ومعه العرب أولاد مهلهل الذين استنجدوه لذلك، فأخرج ابن تافراكين سلطانه أبا إسحاق مع عرب، أولاد أبي الليل، وبث العطاء في عسكره، وعمر له المراتب والوظائف، وتعلل عليه صاحب العلامة إبراهيم بن محمد بن عمر بالاستزادة في العطاء، فعزله، وأولاني فكتبت العلامة للسلطان، وهي وضع "الحمد لله والشكر لله" (ابن خلدون، 55).

ولم يكتفِ ابن خلدون بالكتابة للحفصيين بتونس، بل عمل لأغلب حكام بلاد المغرب الإسلامي، وقد خاطبه ابن الخطيب لما ارتحل من بحر المرية واستقر ببلده بسكره عند رئيسها العباس بن مرين، ونتيجة لظروف بلدان المغرب الإسلامي.

فقد اعتذر عبد الرحمن بن خلدون عن تلبية طلب الأمير أبي حمو موسى بن زيان 769هـ/1368م بتولي خطة العلامة وأرسل أخاه يحيى نيابة عنه، فكتب لسلاطين بني زيان وقام بها خير قيام وألف كتاباً في تاريخ السلطان أبي حمو بن عبد الواد وملوك تلمسان وعنوانه (بغية

الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد) وقد وصلته رسائل ابن الخطيب السلماني فقام بالرد عليها (ابن الخطيب، 1981، 400-441).

كذلك قصد تلمسان أبو عبد الله محمد بن الجدامي الوادي أشي لقبه المقري بالفقيه الأديب حائز قصب السبق في كثرة النسخ والكتابة وعاش بها يحترف بالنسخ وصاهر ابن مرزوق. (المقري، 1948، 71؛ ينظر كذلك: أبي الحسن القلصادي، 27) ويذكر ابن سعيد العلامة (أبو بكر محمد بن احمد بن محمد بن سفيان) أصيل مدينة لقنت من (أعمال تدمير) تولع بطريقة الكتابة فبرع فيها وكتب عن ولاتها وسكن مدينة تلمسان (ابن سعيد، 274).

وهناك أعداد من الأندلسيين قدموا ضمن حملة أبى الحسن المريني في محاولته للسيطرة على بلاد المغربيين الأدنى والأوسط، واستقرار البعض منهم في مدنه حتى بعد مغادرته لها، حيث وجدوا المناخ المناسب لإبداعاتهم رغم أن أغلب هؤلاء تقلدوا مناصب مرموقة في بلاط المرينيين، ولعل أشهرهم ابن الحاج النميري صاحب كتاب الرحلة المسماة (فيض العباب وإضافة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسطنطينة والزاب)، وكان صاحب علامة السلطان أبى الحسن المريني وأثناء وجود السلطان بأرض الحفصيين والزيانيين أقام معه فترة من الزمن ثم رحل للمشرق لأداء فريضة الحج، وفى طريق عودته اتصل بالدولة الحفصية بإفريقية سنة 735هـ/1335م وخدم سلاطينها في تونس وبجاية مطلقاً بالكتابة والإنشاء ثم ذهب سفيراً إلى فاس عن طريق بنى حفص لبحث العلاقات بينهما. (ابن الخطيب، 352؛ الفريد، 1989، 46-47).

وممن قدم في جملة السلطان أبي الحسن أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي أصله من الأندلس وكان يجيد الترسل وارتحل بعد (واقعة طريف) فنزل سبتة ثم شغل منصب كبير عند المرينيين وعاش حقبة من الزمن في تلمسان كاتبا للسلطان عبد العزيز المريني والتقى المؤرخ الكاتب ابن الخطيب فيها، ولم يلتحق بمراكش وبقي بالقيروان وتولى بعض المهام وخاصة الكتابة للسلطان الحفصي بتونس ثم بجاية في الحملة الثانية 754هـ/1353م ولما عاد إلى مراكش ترك ابنه الفضل. (ابن خلدون، 1984، 24؛ ابن الأحمر، 78-79).

أما خطة القضاء فتعد من أرقى الخطط السلطانية وأرفعها يقول القاضي النباهي "ولا شرف في الدنيا بعد الخلافة أشرف من خطة القضاة..، اشترط العلماء في متوليه من شروط الصحة والكمال" (النباهي، 2006، 15)، واختلف القضاء في بلاد الأندلس عن بقية المدن الإسلامية إذ ظهر في مجلس القضاء ما يسمى بالشهود العدول الذين يشبهون بالمحامين في الأنظمة القضائية

المعاصرة، وعُرف الأندلسيون بالدقة في اختيارهم، وكانوا لا يقدمون أحدا للفتوى ولا يتولى الشهادة إلا بعد عقد مجلس المذاكرة ويكون ذا مال في غالب الحال خوفاً من أن يميل به الفقر إلى الطمع فيبيح حقوق الدين (الدغيلى، 60).

فكان قضاة الأندلس من أصحاب الحكمة والعلم والمعرفة بأدق الأمور، ولذلك لم يخل جهاز القضاء في بلدان المغرب الإسلامي خلال القرون الموالية للقرن السابع الهجري من الاعتماد على كثير منهم، وبخاصة بعد هجرتهم والاستقرار في هذه البلدان، ويعود تولي الأندلسيين لمنصب القضاء في تلمسان إلى حقبة سابقة، حيث اشتغل عدد منهم قضاة خلال العهدين المرابطي والموحدي ويظل قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن عبد الله تولى قاضى القضاة في تلمسان، وتوفي 601هـ (ابن سعيد، 1945، 29–30).

ولما بدأت الهجرة الجماعية لبلدان المغرب وكانت تضم عدداً كبيراً من هؤلاء العلماء والقضاة فقد تفرقوا في المدن والبلدان وأخذ كلٌ يعمل في مجاله، واستقدم أمراء الزيانيين والحفصيين أشهر قضاتهم وتم منحهم الفتيا والقضاء في ولاياتهم وبخاصة في الحاضرتين تلمسان وتونس، إضافة إلى المدن الكبرى مثل بجاية ووهران وطرابلس وقابس وغيرها من المدن.

ولم يفت الدولة الزيانية الاستفادة من خبرة قضاة الأندلس فاعتمدت على مجموعة كبيرة منهم في جهازها القضائي، فقد تولى القاضي الكاتب الفقيه صاحب القلم الأعلى علي محمد بن يحي بن احمد بن علي بن عمرو قضاء تلمسان فترة من الزمن ثم ولي قضاء الجماعة في بعض مدن إفريقية في عهد الخليفة المستنصر بالله الحفصي (ابن الأحمر، 401)، وتولى القاضي حسين بن يوسف بن يحي السبتي قضاء الجماعة في تلمسان سنة 663هـ/1265م (السيوطى، 544).

ويظل سعيد بن محمد بن محمد العقبانى نسبة إلى عقبان قرية من قرى الأندلس من أشهر هؤلاء الأندلسيين الذين تولوا منصب قاضى الجماعة بتلمسان فكان إماماً فاضلاً ولى قضاء الجماعة ببجاية أيام أبى عنان ثم انتقل إلى تلمسان. (ابن مريم، 33)، وظلت أسرته تتولى مناصب سياسية كبيرة في الدولة الزيانية منهم ولده قاسم ومن بعده حفيده أحمد بن قاسم وغيرهما، وظلوا مدة طويلة حتى إن الرحالة المصري الشهير عبد الباسط بن خليل كان التقى أحد أفراد هذه العائلة في تلمسان ومنهم قاضى الجماعة محمود العقبانى وأخوه أبو سالم إبراهيم خطيب جامع تلمسان ما بين 866–871هـ/1462–1466م (بن خلدون يحي، 123؛ المكناسي، 34؛ بوعزيز، 2003، 149–150؛ محمد أبو عبادة، 1975، 131).

ولم يقتصر نشاط الأندلسيين على الوظائف والمناصب الكبرى فقط، بل انتصبوا لبعض الوظائف والمناصب الأخرى مثل الخطبة والصلاة في الجوامع وتولى السفارات، إضافة إلى بعض أعمال القصر الصغيرة سواء في قصور الحاضرتين أم في بقية قصور الإمارات التابعة لهم.

أما الجيش والبحرية فقد ظل على حاله منذ عهد الموحدين ولم يطرأ أي تغيير بقدوم هؤلاء المهاجرين رغم إسهاماتهم التي أضافوها وتقلدهم لمناصب عليا في الجيش والبحرية وكان الجند ينقسم إلى سبع طبقات طوال العهد الموحدي ومن بعده عهد الحفصيين وبني زيان فكان على النحو التالي:

أ- الطبقة الأولى وتمثل الأشياخ الكبار من الموحدين الذين هم من أتباع المهدي.
ب- الطبقة الثانية وتمثل الأشياخ الصغار من الموحدين أيضاً وهم أقل رتبه من أشياخ الطبقة الأولى.
ج- الطبقة الثالثة وهى ما تعرف بالوقافين وهم قوم لهم خاصية بالسلطان يسكنون معه في القصبة وهى القلعة وهم بمنزلة الأمراء الخاصكية وينقسمون على قسمين وقافون كبار ووقافون صغار وكلهم يقفون بين أيدي السلطان في أوقات جلوسه.
د- الطبقة الرابعة وتمثل عامة الجند.
هـ- الطبقة الخامسة وتمثل جنود قبائل العرب وجموع من مهاجري الأندلس.
و- الطبقة السادسة وتمثل الصبيان وهم جماعة الشباب.
ز- الطبقة السابعة وتمثل الجند من الإفرنج ويعبر عنهم بالعلوج وهى خاصة السلطان لا يطمئن إلا إليهم (العمري، 1968، 132؛ برنشفيك، 76).

ورتب برنشفيك الجيش في بلدان المغرب الإسلامي على أساس قبلي فجعل الموحدين على رأس القائمة ثم يتبعهم حسب نظام متغير العرب والبربر التابعون للمغرب وإفريقية والأندلسيون والأسرى النصارى (برنشفيك، 76).

والملاحظ من خلال هذه التقسيمات وجود مجموعات أندلسية في هذه الجيوش أو في الحرس الخاص للسلاطين وإن كانت أعدادهم قليلة، إذا اختار أغلب الأندلسيين المهاجرين العمل في الشؤون الإدارية الخاصة بالدولة من حجابة، وكتابة، وقضاء، وغيرها لكونهم لم يكونوا جنداً وتعود أغلبهم على حياة اللهو والترف والعيش في حياة رغدة وسهولة واعتمادهم في جيوشهم على بعض المرتزقة.

ورغم قلة أعدادهم إلاً أنهم أسهموا بدور رئيسي في تشكيل الجيوش الإسلامية وتبوأ بعضهم مراكز ومناصب عسكرية مهمة، فقد شهدت استعدادات المستنصر بالله لمواجهة هذه الحملة تعبئة سواحل مدينة رادس بالمرابطين والأندلسيين والمتطوعين وبلغت أعداد هؤلاء المرابطين في حصن المدينة أربعة آلاف فارس وجعلوا تحت قيادة الوزير الأمير محمد بن أبى الحسن الأندلسي (المقري، 206)، وآل مصير هذه الحملة إلى مصير سابقتها حيث الفشل والانهزام بسبب تفشى الوباء الخطير الذي أتى على كثير من الناس بمن فيهم قائد الحملة الملك لويس التاسع نفسه إذ مات في الخامس والعشرين من أغسطس "2170م المحرم من سنة 669هـ" (ابن الشماع، 73؛ المطوي، 208؛ المقري، 324).

واعتمدت الدولة الزيانية على مجموعة من الأندلسيين في جيوشها، ووصل أفراد منهم إلى مناصب عسكرية كبرى، ومن أشهر الأندلسيين العاملين في خدمة جيوش بني زيان إبراهيم الأبلي وأخوه أحمد اللذان هاجرا من قرية أيلة ببلاد الجون شمال غرب مقاطعة مجريط "مدريد" بالأندلس إلى تلمسان، واشتغلا جنديين في جيش الحاكم يغمراسن الزياني، وكان إبراهيم هذا قد التحق بالجيش هو الآخر وعمل قائداً لحماية مدينة هنين شمال مدينة تلمسان. (ابن خلدون، 34؛ يحي بن خلدون، 120؛ أبو عزيز، 95).

أما التأثيرات الأندلسية في الأسطول والبحرية فلم تكن بذات التأثير في الجيش والجوانب السياسية والإدارية الأخرى، وهذا لا يقلل من وجود تأثيرات أندلسية في هذا المجال ويبدو أن رجال الأندلس الذين اشتغلوا في الأسطول ودار صناعة السفن لم يكونوا ذوي شهرة كبيرة، وإنما كانوا جنود مجهولين من عامة الناس، إلاً أنهم أسهموا بشكل كبير في تطوير النشاط البحري وما ورد من مصطلحات بحرية أندلسية إلا دليل على هذا الإسهام.

وخلاصة القول أن قدوم هؤلاء الأندلسيين واستقرارهم بتلمسان قد أسهم بدور كبير في تطوير النشاط السياسي والإداري بخاصة، والجوانب الحياتية الأخرى بعامة.

المصادر والمراجع

1- ابن الأحمر، الدولة الزيانية، تقديم هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، 2000م.

2- ابن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجى للطبع، 1981.

3- ابن الشماع، الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، 1984.

4- ابن القنفد، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد النيفر، عبد الحميد التركي، تونس، 1968.

5- ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، تقديم عبادة كحيلة، الشركة الدولية للطباعة، 2003.

6- ابن خلدون، المقدمة فن الكتابة، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1997.

7- ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1968.

8- ابن سعيد، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار المعارف، القاهرة، 1945.

9- ابن سعيد، المُغرب في حُلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1980.

10- ابن فضل العمري، مقتطف من كتاب مسالك الأبصار، تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب، تونس، 1974.

11- ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، طبع في المطابع التعليمية لصحابها أحمد بن مرد التركي، 1908.

12- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج وتطريز الديباج، تقديم عبد الحميد الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس الغرب، ج1، 1989.

13- أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، ط4، 1979.

14- الأخضر عيذاب، "تاريخ مملكة تلمسان في عصر بني زيان"، رسالة دكتوراه، جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1986.

15- الحسن بن محمد الوزان المعروف "ليون الأفريقى"، وصف أفريقيا، ترجمة محمد حجى، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1983.

16- الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق الحسن اليعقوبي، المكتبة العتيقة، تونس، 1998.

17- السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، مكتب العصرية، بيروت.

18- الصلابي، دولة الموحدين، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط2، 2003.

19- الفريد دى برلماسة، مذكرات ابن الحاج النميري، الأندلس، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، إشراف عبد العزيز اللاهواني.

20- القاضي المكناسي، درة الحجال في غرة أسماء الرجال، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2.

21- القلصادي، رحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجفان، الجامعة التونسية، الشركة التونسية للتوزيع.

22- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء.

23- المطوي، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1996.

24- المقري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، القاهرة.

25- المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988.

26- النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، أو كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تقديم صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2006.

27- الوليد بن إسماعيل الأحمر، أعلام المغرب الأندلس في القرن الثامن، تحقيق محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، 1997.

28- الونشريسي، المعيار المعرب في فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.

29- برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1985.

30- بن الخطيب الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخنجي، القاهرة، 2001.

31- جورج مارسيه، بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمود عبد الصمد هيكل، توزيع منشأة المعارف، الإسكندرية، 1991.

32- رزوق، "الجالية الأندلسية بالمغرب العربي"، المناهل وزارة الشئون الثقافية، الرباط، عدد 34، السنة 13.

33- عبد الحميد حاجيات، "تلمسان مركز الإشعاع الثقافي في المغرب الأوسط"، مجلة الحضارة العربية، وهران، الجزائر، السنة الأولى، 1993.

34- علي سامي النشار، مقدمة كتاب الشهب اللامعة في السياسة النافعة لأبي القاسم بن رضوان، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1984.

35- محمد أبوعبادة، "رحالة مصري يزور الجزائر في القرن التاسع الهجري"، مجلة الأصالة، السنة الرابعة، عدد 24 ، 1975.

36- محمد سعيد الدغيلي، الحياة الاجتماعية.

37- محمد عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان "مقتطف من نظم الدرر العقيان في بيان شرف بني زيان"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

38- مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر.

39- يحيى أبو عزيز، مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، دار الغرب للنشر، وهران، 2003.

40- يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980.